الاسكندرية فى أوج عظمتها

للأستاذ أحمد الشنتناوى

ليسانسيه فى التاريخ والآداب وليسانسيه فى الفلسفة والاجتماع

مدينة الاسكندرية إحدى الآثار الخالدة التى خلفها الاسكندر المقدونى أثناء تلك الفتوحات الهائلة التى قام بها فى القارتين : الافريقية ، والآسيوية بقصد توحيد العالم المعروف لذلك الوقت تحت لواء امبراطورية واحدة كبرى تضم أجزاءه وأطرافه ؛ ولكن ذلك الحلم الذهبى لم يلبث أن تلاشى بموت الاسكندر عام ٣٢٣ قبل الميلاد، وتفرقت تلك الامبراطورية الحديثة العهد أشلاءاً وأجزاءاً ، وكانت مصر نصيب بطليموس بن لاجوس أحد قواد الاسكندر المقربين لديه ، وغدا هذا الرجل صاحب الصولة والسيطرة فى مصر . وكانت شهرة مصر الوحيدة فى ذلك الوقت أنها كانت المورد الأول والوحيد لورق البردى لجميع جهات العالم القديم . فكان هذا الاحتكار مصدر أموال جمة تمكن بواسطتها بطليموس من تحقيق ما كان يحلم به ، أى من تأسيس ملك قوى يقوم على دعائم ثابتة من العلوم والآداب .

وقد كان مركز مصر وتوسطها بين العالم القديم فى الحقيقة سبباً من أسباب نهوضها لأنها كانت تستقى من جيرانها كل جديد من الفن والحضارة ، ثم كانت هى من جهة أخرى تفيض على العالم نوعاً طريفاً من الحضارة المصرية، هو خلاصة تلك الحضارات العدة المجاورة ؛ ولكنها خلاصة طلية جديدة بكل معانى الجدة ، عليها الطابع المصرى الخاص دون أن يكون هناك أى شذوذ أو عدم تناسق بين أجزائها وفصولها ؛ ثم كان دخول الاسكندر مصر وتأسيسه لمدينة الاسكندرية ، فغدت بعد فترة قصيرة إحدى الفرض العظيمة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، فأخذت تنافس بموقعها قرطاجنة الهائلة ، وامتدت صلاتها التجارية إلى أطراف العالم القديم كنواحى الهند، وبلاد العرب؛ وقدر للاسكندرية أن تلتمس بعد موت مؤسسها حتى بلغت أوج مجدها وعزها فى عهد الامبراطورية الرومانية ، وبالأخص إبان حكم أمبراطرتها الأول الأماجد .

شعرت مصر باستتباب الأمر فيها تحت البطالسة والحكام الاغريق ؛ ووجدت فى مصر حكومة ديدنها التسامح ، والعمل لما فيه مصلحة الأهلين، فشعرت أنها كسبت حقاً بانضمامها تحت اللواء الاغريقى ، فكان ذلك سلواها بعد أن فقدت استقلالها، وفى الحقيقة كانت مصر تعتبر أنها هى التى غزت البطالسة وضمتهم إليها، ولم تكن هى التى انضمت تحت اللواء المقدونى . وقد

ظهرت هذه الحقيقة واضحة جلية فى كل مظاهر العمران التى تتحت عقب هذا الانضمام ، إذ نرى ـ مثلا ـ أن بطليموس رأس الحكومة قد تميز عن غيره من الحكام الاغريق الذين يحكمون باقى أنحاء أمبراطورية الاسكندر ؛ فهو فى مصر قد غدا فرعوناً لا يختلف عن الفراعنة المصريين الذين تبوأوا عرش مصر من قبله فى شىء،وقد استلزم ذلك ـ دون شك ـ اصطباغ جميع مرافق الحكومة بالصبغة الفرعونية،بعد أن كان المنتظر أن تسود النظم الهيلانية فى مصر جميع النظم الأخرى المعروفة،وأصبح النظام السياسى والادارى فى مصر هو تكملة لنظام الحكم الذى كان سائداً إبان الفراعنة: تحتمس أو رمسيس أو غيرهما .

بعد ذلك ننظر إلى مدينة الاسكندرية نفسها ، فنجد الأمر فيها يختلف عن باقى جهات مصر ، فانها ـ بالنسبة لصلاتها التجارية للتواصلة مع أنحاء العالم الاغريقى ، ثم لوجود البلاط البطليموسى بها ـ كانت مدينة إغريقية بكل معانى الكلمة ، إذ كانت اللغة الاغريقية والنظم الهيلانية هى التى تسود البلدة فى جميع نواحيها، لأن بطليموس ـ بلا شك ـ كان يحن إلى ثقافته وتعاليمه الاغريقية ،ولو أنه يعمل جهده فى عدم إشعار المصريين أن على رأس الحكومة المصرية ملكا غريباً عن البلاد وعن عاداتها وتقاليدها ، لذلك كانت اللغة الاغريقية هى لغة العلم والثقافة فى مصر كلها، حتى أن الجالية اليهودية التى كانت تقطن الاسكندرية ـــ وهى موفورة العدد والنفوذ ـ قد اضطرت إلى ترجمة كتبها المقدسة إلى اللغة الاغريقية ، بل إن الكثيرين منهم نسى لغته العبرية ولم يعد يفهم غير الاغريقية ، وبالجملة لم تكن سيطرة اللغة الاغريقية مقصورة على مصر وحدها ، بل كانت سائدة بوجه أعم فى النصف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط .

وكان بطليموس الأول ذا كفايات علمية نادرة ، وقريحة حاضرة ،وذهناً متوقداً ، أخذ على عاتقه نشر تعاليم أرسطو حسبما سمعها وفهمها من بلاط مقدونيا، حيث كان أرسطو يهذب ويعلم الاسكندر الأكبر ابن ملكها فيليب المقدونى. وكان أول خطوة خطاها بطليموس فى سبيل تحقيق ذلك الغرض هو تأسيسه لمتحف الاسكندرية . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن لكلمة متحف « Museum » هذه معنى آخر غير ذلك المعنى الذى نفهمه منها فى العصر الحاضر ، فانها كانت تدل ـ عند العالم الاغريقى القديم ـ على المعبد الذى تبجل وتعظم فيه آلهة الفنون والاداب،وبالأخص آلهة الشعر،والموسيقى،والأدب فقد كان يوجد مثلا فى المعهد ـ الذى أسسه أرسطو للفلسفة فى أثينا ـ قسم لهذا الغرض المذكور آنفاً، كما أن بطليموس قد استعان فى تشييده لهذا المتحف ، والمكتبة الملحقة به ، بأحد اليونان اللاجئين إلى بلاطه ، وكان ممن اشتهروا بالاداب والفلسفة ويدعى ديمتريوس،وهذا بدوره جعل من مدرسة أرسطو والمتحف فى أثينا أنموذجاً يأخذ عنه فى تشييده لمتحف الاسكندرية ومكتبتها .

ابتدأ العمل فى بناء المتحف فى عهد بطليموس الأول ، ولكنه لم يتم إلا فى عهد ابنه بطليموس فيلادلف ٢٨٥ — ٢٤٧ ق . م ، الذى اشتهر بحبه للاداب وعلم الحيوان ؛ وكان عبارة عن بناء هائل ملحق بالقصر الفرعونى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط بالاسكندرية، وقد ذكر استرابو عند زيارته للمتحف عام ٢٤ ق.م ، أنه كان يتألف من صالة كبرى تحوطها أروقة تشابه أروقة معهد أثينا ، وكان رئيس المتحف ينتخبه ملك مصر بنفسه، وكان لقبه الرسمى « كاهن آلهة الاداب » ؛ ولقد حبب بطليوس للعلماء اليونان والفلاسفة الرحيل إلى الاسكندرية ونشر أبحاثهم ، وتعاليمهم تحت اسم المتحف الاسكندرى، وكان ينفق عن سعة على هؤلاء العلماء ، ويجرى عليهم أرزاقهم موفورة محترمة، لذلك كان المتحف أشبه شىء بمجمع للعلماء الذين انقطعوا للعلم والدرس ، وغدا الحال على هذا المنوال حتى عام ٣٠ ق . م ، إذ أصبح المتحف تابعاً للحكومة الرومانية ، وهى التى تتولى صرف أرزاق العلماء والفلاسفة الذين يعملون فيه .

وكان بجانب هذا المتحف مكتبة هائلة ضمت بين جوانبها أغلبية المؤلفات التى كانت معروفة لذلك العهد، إذ يذكرون أنه كان بها — فى عهد بطليموس فيلادلف أى الثانى — خمسمائة ألف مؤلف ، وقد وصل هذا العدد إلى سبعمائة ألف مؤلف عام ٥٠ ق.م، وكان لهذه المكتبة شهرة عالمية فائقة ، إذ كانت أكبر مكتبة فى ذلك الوقت، بل كانت عبارة عن دائرة المعارف الوحيدة التى يلجأ إليها كل من التوت عليه مسألة من المسائل، أو بحث فى أى فن من الفنون، فيجد بها ما يشفى غليله من المؤلفات التى جمعت من جميع نواحى المعمور. ولا تزال تقرأ فى كتب التاريخ عن الوسائل العدة المختلفة التى لجأ إليها ملوك مصر فى ذلك العهد، لأجل جمع المخطوطات النادرة، فانهم كانوا يتصيدون المخطوطات تصيداً ، ويبثون العيون لأجل البحث عن الكتب التى لا توجد منها نسخ فى مكتبة الاسكندرية ، وكانت العادة الجارية أن يحتفظ البطالسة بالنسخة الأصلية ، ويعطوا صاحبها نسخة أخرى تنقل عن النسخة الأصلية ، لذلك وجد فى المكتبة عدد وافر من النساخ انقطعوا لهذا العمل وتخصصوا فيه . وقد اهتم مدير المكتبة ، وكان يدعى (Callimachus) بوضع فهرس شامل لجميع ما تشتمل عليه الدار من مخطوطات ومؤلفات .

ولم تكن المؤلفات فى ذلك العهد البعيد على مثال ما نعهده اليوم من حيث الشكل والحجم ، بل كان الكتاب عبارة عن مجموعة هائلة من رقاع البردى ملفوفة معا ، لذلك كانت مهمة القارىء عسيرة شاقة، وبالأخص إذا أراد الرجوع إلى نص، أو عبارة سابقة مرت عليه بين أوراق المخطوط، وقد حدا هذا بمدير المكتبة إلى أن يقسم الكتب المطولة كتاريخ هيرودوت مثلا إلى كتب منفصلة لسهولة حفظها ، وتوفير لعناء القارىء ، ولقد جذبت المكتبة إليها عدداً كبيراً من طلاب العلم يفوق بكثير العدد الذى أتى للاستفادة من علماء المتحف ، وأساتذته ؛ وازدهت

الاسكندرية بهذا العدد الوافر من الطلاب ، وغدا وجودهم فيها سببا من أسباب انتعاش حركة الرزق والتجارة بها .

وبالجملة فقد كانت المكتبة والمتحف منار العلماء والمتأدبين فى ذلك الوقت ؛ غير أن ذلك النور لم يرسل شعاعه إلا إلى حد محدود ، وذلك لعدم استطاعة كل شخص يريد العلم الرحيل إلى الاسكندرية ليرتشف من مناهلها العلمية ؛ ولم تكن هناك وسيلة أخرى يتمكن بواسطتها القاصى والدانى من تلقى العلم كطريقة المراسلة المعروفة اليوم مثلا ، ولا يمنع هذا أنه كان بالاسكندرية بجانب المكتبة الكبرى عدة مكتبات أخرى صغيرة أهمها مكتبة السرابيوم التى كانت تحتوى على نحو ٤٠ ألف مخطوط ، وكان فى مكنة طالب العلم أن يشترى بعض المؤلفات والرسائل من بعض المكتبات الصغيرة بأثمان معتدلة ، وعلى الجملة فقد كان العلم محجوبا عن الطبقة الدنيا من الناس الذين شغلوا بتتابع الحياة ، والبحث عن الرزق عن كل شىء آخر .

وبالرغم من الحاجة الماسة إلى طلب العلم ، فان القوم فى ذلك الوقت لم يحاولوا قط الاستفادة من أسس فن الطباعة التى كانت معروفة منذ أجيال سابقة ؛ فان إنسان العصر الحجرى مثلا كان يقوم بطبع الصور والرسوم على ملابسه الجلدية ، كذلك كانت الأختام قد عرفت ، وهى تحمل فى طياتها أسس فن الطباعة ، وقد كانت الصين أول من بدأ فى تطبيق هذا العلم على العمل ، إذ أخذت فى طبع كتبها القيمة منذ القرن الثانى للميلاد ؛ وربما يرجع السبب فى عدم انتشار فن الطباعة فى ذلك الوقت إلى معارضة أصحاب العبيد الذين يقومون بعملية النسخ فى المكتبات خوفا من انقطاع أرزاقهم ، وقد يرجع ذلك إلى عدم اتصال النظام الاجتماعى بين رجال الفكر الذين يقومون بتأليف الكتب ، وبين رجال الأعمال الفنية الذين يمكنهم تنفيذ فكرة الطباعة عمليا ؛ ولعل السبب الأهم فى عدم انتشار فن الطباعة : هو عدم وفرة المواد الصالحة للطباعة كورق البردى ، أو وجودها بشكل لا يلتئم مع المطلوب ، ولكن لا يقوم كل هذا عذراً قويا أمام عدم انتباههم قطعيا لطبع بعض الصور التصويرية أو الرسوم البيانية التى قد تعين القارىء على تفهم ما يقرأ .

وعلى الجملة فقد كانت الاسكندرية — إبان عهد البطالسة ٣٢٣ — ٣٠ ق.م — مركزاً للثقافة والعلم الاغريقى ، ولقد اشتهرت بالابحاث الرياضية والجغرافية التى قام بها علماء المتحف ، ويكفى أن نذكر اسم اقليدس ، وكلنا يعرف هندسته ونظرياته (وإراتوستين Eratosthenes) وهو أول من حاول أن يقيس قطر الأرض ، وقد نجح فى ذلك نجاحاً باهراً بحيث إن تقديره لم يقل عن الحقيقة إلا بمقدار خمسين ميلا فقط ، كذلك أدخل عدة إصلاحات على التقويم بقصد تحديد تواريخ بعض الحوادث الهامة الماضية ، كما أنه كتب رسالة فلسفية فى طبيعة الخير والشر ؛ كذلك

برع إراتوستين فى الأدب والشعر ، فقد كتب أشعاراً مطولة استمد موضوعها من الميثولوجية الاغريقية القديمة ، كما أنه يعد من بين مؤسسى علم الجغرافيا الحديث .

أما فى ميدان التاريخ فقد ظهر فى عهد بطليموس الأول مؤرخ مصرى يدعى مانيتو كان أحد رجال البلاط البطليموسى ، وهذا تمكن من وضع تاريخ لمصر القديمة ، مستعيناً على ذلك بالمستندات الرسمية الموجودة بالقصر الملكى ، والتى لم يتوصل إليها أحد قبله من المؤرخين ، وقد ظل تاريخه مصدراً هاماً للمؤرخين الذين كتبوا عن مصر بعده . كذلك كان للاكتشافات الجغرافية حظ موفور فى ذلك العهد ، وقد ساعد على ذلك وجود الأسطول المصرى العظيم الذى خفقت أعلامه فى جميع البحار المعلومة لذلك الوقت ، وقد وصل الأميرال المصرى فيلو إلى بلاد إيثوبيا ووضع مؤلفاً نفيساً عن تلك البقاع ، ولقد تبعه فى ذلك الأمر باقى أمراء البحر الذين أتوا بعده ، إذ وضع كل منهم مؤلفاً عن الجهات التى وصل إليها بسفنه ، ولا ننس أن اكتشاف الرياح الموسمية فى المحيط الهندى يرجع الفضل فيه إلى رجال البحر المصريين الذين ظهروا فى عهد دولة البطالسة ؛ وقد ظهر بجانب هؤلاء علماء آخرون كتبوا فى نواحى العلم المختلفة رسائل قيمة ، مثل أبو لونيس الذى كتب عدة رسائل قيمة عن القطاعات المخروطية ، ثم هيباركوس وهو أول من حاول أن يرسم خريطة للسماء وما بها من كواكب ونجوم ، والتغيرات التى تطرأ على أماكنها من وقت لآخر ، ووضع هيرو (Hero) تصميم أول آلة بخارية . ولقد استرعت هذه الاكتشافات العلمية أنظار العلماء من جميع بقاع الأرض ، لذلك نجد أرشميدس الطبيعى المشهور يرحل إلى الاسكندرية بغية الدرس والتحصيل ، وقد غدا مراسلا خارجياً للمتحف بعد مغادرته للاسكندرية كما يفعل الأعضاء الأجانب المنتمون لمجمع العلماء الفرنسى فى الوقت الحاضر . كذلك اشتهرت مدرسة الطب بالاسكندرية ، إذ كانت أول مدرسة من نوعها فى العالم ، ويذكرون أن هيروفيلوس أشهر علماء التشريح فى الاسكندرية كان يجرى تجاربه وأبحاثه على جثث المجرمين ، مع أن الكثيرين غيره من العلماء أنكروا هذا العمل إذ كانوا يكتفون بعلم المقابر والوصفات الطبية .

إلا أن هذه الحركة العلمية المباركة قد خبا لهيبها فى أقل من قرن من الزمان لأن ، نظام المتحف نفسه لم يكن بحيث يكفل له البقاء والخلود طويلا ، لأنه كان بمثابة معهد ملكى ، فأساتذته كان ينتخبهم فرعون مصر بنفسه ويدفع هو رواتبهم وأرزاقهم ، وهذا بخلاف الحال فى مدارس أثينا ومعاهدها إذ كانت تتمتع بالروح الديمقراطية وباستقلالها عن كل سلطة فردية تتحكم فيها ، لذلك كانت أكثر ثباتاً ودواماً من مدارس الاسكندرية ومعاهدها . ولقد استفادت مدارس الاسكندرية ومعاهدها حقاً من رعاية ملوك مصر لها ، ولكن تلك الاستفادة لم تكن منتظرة إلا من ملك قوى محب للعلم والآداب أمثال بطليموس الأول أو بطليموس فيلادلف ؛ ولكن

من يضمن لنا بقاء تلك الروح العالية فى نفوس الفراعنة أجمعين ؟ . ثم لم تلبث أن طغت سلطة الكهنة فى مصر على سلطة الفراعنة فاضمحل المتحف وخفتت أصوات أساتذته وعلمائه ؛ أما المكتبة فقد أصابها الحريق عدة مرات ؛ وأهم وأكبر حريق أصابها كان عام ٤٧ ق . م عند ما أشعل يوليوس قيصر النار فى الأسطول المصرى الراسى بميناء الاسكندرية ، ثم بعد ذلك أهملت المكتبة بالتدريج وقلت عناية الفراعنة بها تدريجياً حتى تلاشت من عالم الوجود قبل منتهى القرن الثالث للميلاد ؛ فلم تكن هناك بالاسكندرية مكتبة عند دخول العرب مصر على يد عمرو بن العاص ، وقد أصبح الآن خبر إحراق تلك المكتبة على يد عمرو بن العاص ـ بأمر عمر بن الخطاب ـ حديث خرافة لا يقوم على أى أساس من الصحة . أما المكتبة الأخرى التى كانت محفوظة بالسرابيوم فقد دمرها المسيحيون عام ٣٩١ من الميلاد . وكانت الاسكندرية كذلك خلاف ما ذكرنا مركزاً لتبادل الآراء الدينية ؛ إذ كانت المخطوطات المحفوظة فى المكتبة والمتحف تضم بين دفتيها بذور مذهب أرسطو والروح الهيلانية ، ثم عنصراً قوياً من الحضارة المقدونية . ثم كان بجانب ذلك عدد عظيم من اليهود نزحوا إلى مصر من جهات فلسطين ؛ ولا مانع هذا أنه كان بمصر قبل نزوح هؤلاء عدد آخر من اليهود غير قليل ، ظل بمصر ولم يرحل إلى بيت المقدس عند هجرة هذا العنصر من مصر مع نبيهم موسى . وكان هؤلاء اليهود يفلتون قسماً كبيراً من الاسكندرية ؛ بل كانت الاسكندرية فى ذلك الوقت المدينة الأولى التى تضم أوفر عدد من اليهود بحيث فاق عدد اليهود فيها عددهم فى بيت المقدس نفسها ؛ وقد رأينا كيف نقل هؤلاء اليهود كتبهم المقدسة من العبرية إلى الاغريقية . وكان بجانب هؤلاء عدد عظيم من المصريين أصحاب البلاد يتكلم أغلبهم اللغة الاغريقية ؛ ولكنهم كانوا عنصراً محافظاً على تقاليده وعقائده وطقوسه التى تغلغلت فى نفوسهم منذ أربعين قرناً خلت من الزمان .

ومن هذا يتبين أنه اجتمع فى مصر وبالأخص بمدينة الاسكندرية ثلاث عقليات متباينة الطباع والعادات ؛ وهى على الجملة العناصر التى كانت تمثل الجنس الأبيض فى ذلك الوقت ؛ ونقصد بها : العنصر الارى اليونانى الذى اشتهر بعقليته الجبارة الناقدة للأمور ، ثم العنصر السامى اليهودى ، وهم أصحاب كتب منزلة وعقيدة خاصة لا يتزحزحون عنها ؛ ونقصد بها عقيدة التوحيد (Monotheism) ، أما العنصر الثالث فهم المصريون ، ولهم طقوسهم وديانتهم المعروفة التى تجلت فى معابدهم الضخمة ومذابحهم العدة .

هذه هى العناصر الثلاثة الهامة التى كانت تتألف منها مدينة الاسكندرية . ولا يغيب عن أذهاننا كذلك أنه كان يوجد فى الأسواق وفى ميناء البلدة عدد آخر من الأجناس الأخرى المتباينة النظم والعادات ، حتى أن طائفة من البوذيين تركوا الهند واستوطنوا الاسكندرية بقصد التبشير بديانتهم ومذهبهم . . . . !

وفي وسط هذا البحر العجاج من الاختلاط الجنسي والديني أخذ الناس يشعرون أن تعدد الالهة ما هو إلا تعدداً اسميا فقط لكائن واحد هو مصدر ما في الوجود من كمال وخير، فهو عند الرومان الاله جوبيتر، وعند اليونان الاله زيس (Zeus) وعند البابليين الاله مردوخ، وهو عند المصريين آمون إله السماء والأرض. وقد يشتق من كل إله من الآلهة السابقة الذكر عدة آلهة أخر، هي بمثابة النواحي المختلفة للاله الواحد، مثل الآلهة أزوريس وآبيس من آلهة المصريين، لهذا كان عم بطليموس الأول أن يوحد بين تلك الآلهة المتعددة، ولذلك بنى معبد السرابيوم وخصصه لعبادة الاله سيرابيس وهو مزيج موحد لآلهة المصريين واليونان.

ثم نلاحظ كذلك أن فكرة الخلود بدأت تظهر في ذلك الوقت لأول مرة وتصبح مركزاً للمعتقدات الدينية المختلفة، ويرجع الفضل في إظهار تلك الفكرة الدينية إلى المصريين حيث كانوا يعتقدون في هذا الأمر اعتقاداً راسخاً، وقد أخذت هذه العقيدة مكاناً واضحاً في عبادة الاله سيرابيس السابق الذكر، وهذا بدوره انتشرت عبادته في جميع نواحي العالم المتمدين في ذلك الوقت، أي حوالي القرنين الثاني والثالث للميلاد؛ ولقد كان لهذه العبادة أثر جلي في الدين المسيحي عند ظهور المسيح عليه السلام.

ولقد ظلت الاسكندرية هكذا مزدهرة بالعلوم والاداب ردحاً طويلا من الزمن إلى أن دالت دولة البطالسة وابتدأ نجم الامبراطورية الرومانية في الظهور، فاكتفى الأمبراطرة الرومان بأن جعلوا مصر بأجمعها عبارة عن مخزن للحبوب يمد روما — عاصمة الامبراطورية — بالغلال، فخمدت تلك الروح العلمية في البلاد، وانتقلت تلك الحركة الهائلة من الاسكندرية إلى روما. فسبحان الذي يغير الأمور من حال إلى حال وهو باق لا يتغير!

أحمد الشنتناوي

اطبعوا مطبوعاتكم

في

مطبعة المعرفة

فهي مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد بغاية الدقة والاتقان

الادارة شارع عبد العزيز رقم ٤ بالقاهرة